بسحر الفعل البسيط جداً لكسر القانون» (ص ٣٢).

وتتداعى ذكريات موسى علي عن حرب العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧ ومجيء اليهود: «انتهت الحرب. استوطن اليهود في عين حوسوب، لكن الحد ظل كما هو، بدون سياج وبلا حراس» (ص ٤٦).

ولكي يحتفظ موسى علي المسنّ باصالة بداوته ونقاوتها توجّه بفكره نحو راماد: «رأيته يختزن الكلّ في داخله. علّمته الاّ يتصادق مع الناس، بل مع الحيوانات والحجارة فقط. هذه الاشياء لا تخدع ابداً، ولا قوانين لها. الحجر هو حجر كيفما نظرت اليه» (ص ٤٦). ان ما يرد في هذه الفقرة ليس الاّ تنميطاً واضحاً لما قام موسى علي بتعليم وتلقين راماد. لكن هذا التنميط يوضح لنا، فيما بعد، عالم موسى علي نفسه، الذي يتأرجح بين اليهود وبين بداوته التي بيعت: «احتقرتهم من اعماق قلبي، وبجسدي انجررت وراء سبل اليهود، وراء الجنديات المبتسمات، وراء الراديو والافلام، وراء الشرب وخفّة العقل» (ص ٥٤). ان اندفاع موسى علي وراء اليهود لم يكن غريباً؛ علاقته مع يغئال جرّته الى عالمهم؛ كما ان الامتيازات التي حصل عليها لقاء اشتغاله معهم (متقصّي اثر) هي التي جرّته الى ذلك العالم. لكنه، من ناحية أخرى، لم يستطع الثبات في عالمهم، بل عاد الى عالمه الذي انتزع منه: «كلّما اتجهت السيارة التي سافرت فيها جنوباً اتضحت السماء وبردت رجلاي من البرد. في بئر السبع، اشرقت الشمس عبر الغيوم المرقّقة. كان يوم سوق. توجّهت للتجول بين الجمال، الماعز، الدجاج، واسرج الجمال التي أُعدّت للبيع لليهود، وللسيّاح، وللبدو. رائحة عادت اليّ بموجة كبيرة دافئة. وفجأة، عرفت ان رائحة الدخان الحادّ والقاس، رائحة براز الحيوانات، رائحة الشاي ومذاق الحرارة والجفاف في الصحراء، لا استطيع العيش بدونها. عرفت اني دخلت بين اليهود. انني لا استطيع ان اعود الى ما كنته. من وراء سقيفة نزعت البزّة والحذاء ولبست الجلّابية والعقال واصبحت بدوياً» (ص ٥٥).

عنـد هذا الحد لا تعني عودة موسى من عند اليهود بمثابة مغفرة عن الخطأ الجسيم الذي ارتكبه بحق بداوته؛ فأعز اولاده على قلبه، راماد، يراه بصورة سلبية. فراماد يفكّر: «او ليسكنوننا ثانية بجانب موسى علي، لنصير بدو يهود» (ص ٦١). ويتابع راماد ليصف وحدته الفظيعة والقاسية؛ وحدة البدوي الحقيقي الاخير: «وعرفت، هنا، ان احداً لن يساعدني. لا يوجد بدو من بدونا في هذه المنطقة. كلهم عند حسين. وموسى علي لن يساعدني، لأنه بدوي يهود. وابناؤه الذين تربوا معي كأخوة، وهم اخوة نسائي، هم، الآن، في بئر السبع يبنون مطاراً لليهود، لكي تستطيع طائراتهم ان ترمي القنابل وان تخيف جمالي ونسائي» (ص ٦١).

موسى علي يخسر بداوته. امّا راماد، فيحاول، جاهداً، الحفاظ على بداوته حتى النفس الاخير. وموسى علي يقيم توازياً بين النمر الاخير اليتيم وبين راماد البدوي الاخير، فيقول عن راماد: «هذا نمر يتيم. انا اقول له: نمر يبحث عن ابيه وامه» (ص ٥٨). ويقتل النمر وراماد في النهاية.

يغئال؛ الالتقاء مع الاطراف المختلفة

يلتقي يغئال مع الاطراف كافة؛ فهو يشتغل مراقباً في دائرة الحفاظ على الطبيعة؛ وهو صديق موسى علي. ويظن انه، بفهمه الحيوانات، قد ينجح في فهم دوافع البشر. وهو الذي قام باحضار يونتان الى الصحراء. المواجهة تتمّ بين راماد ويونتان. وموسى علي ويغئال يقفان خارج اطار المواجهة. فيغئال يميل الى ان يكون نسخة جديدة من لورنس العرب. ان يغئال يعرف، تماماً، انه لا يوجد مكان لراماد في الصحراء، لكنه يغض الطرف عنه، خلافاً لموقف يونتان. وحبّه لموسى علي ينبع من نظرة رومانسية؛ فهو يعترف، بصراحة، لماذا احب موسى علي: «ربما بسبب الاحلام والاساطير التي حكوها له عن الايام الاولى من المستنقعات والامراض والملاريا والعرب الجيدين والبدوي الاصيل. وانا بحثت عن هذا كل حياتي. اردت ان اكون لورانس العرب وهنري بيكر تريستارام سوياً. وآنئذٍ، ظهر موسى علي، وعرفت اني وجدت مخلوقاً نادراً» (ص ٧٠). فلقاؤه مع موسى علي هو اللقاء بالصورة النمطية المقولبة في ذهنه عن حالة البلاد ـ حسب الدعاية الصهيونية ـ وعالم البدوي. وتعلو صورة التنميط في حالة تصويره لراماد: «كان في الولد فخر وحشي لم يعرف حدّه. وانا عرفت ان موسى علي يربّيه ليكون على هذا النحو.